الفصل الثالث

النهضة فى ألمانيا

الألمان أدب قوى غزير ، لكنه لا يستمد قوته — كغيره من الآداب — من طائفة من الأعلام البارزين ، بل يستمدها مما بينه و بين الشعب الألمانى من صلة وثيقة لا تجد لها مثيلا فى سائر الشعوب ؛ فللامة — عادة — تراث ضخم من الشعر الشعبى والقصص الشعبى ، يعبر بها العوام عن أمانيهم وآلامهم الفطرية التى لم تصقلها المدنية ولم تشذبها يد التهذيب ؛ ولكن كلما سارت المدنية شوطا إلى الأمام وكبحت جماح الدوافع والنوازع الغريزية الفطرية ، ازداد الناس نفوراً من أدبهم الشعبى ليلتمسوا التعبير عن عواطفهم عند الأدباء المحترفين ، وفى ذلك بالطبع تكلف وتصنع ، ولهذا ترى فى تاريخ الأدب حيناً بعد حين جماعة من المصلحين تضيق صدورهم بهذا النفاق المصطنع فتنادى بضرورة العودة إلى الأدب الشعبى أو ما يماثله بساطة وصدقا ، كما حدث فى أول القرن التاسع عشر فى إنجلترا .

أما فى ألمانيا فلم تنفصم قط تلك الروابط الوثيقة التى تصل قلوب الناس بالشعر الشعبى والأساطير القومية ؛ ومن هنا كان الشعر فى ألمانيا عاملا قويا فى تكوين عواطف الشعب ونزعاته العقلية ، ومن هنا أيضاً كاد الأدب الألمانى قبل نهاية القرن الثامن عشر لا يسترعى أنظار العالم لشعبيته الصميمة ، وكان البحث فى تطور الأدب الألمانى أمراً شاقا عسيراً على مؤرخى الأدب من غير الألمان .

ولا شك أن مشكلة اللغة كانت قوية الأثر فى هذه الظاهرة التى بسطناها ؛ فقد جاء القرن السادس عشر ولما ترجح إحدى اللهجات الألمانية على سواها فتصبح لغة قومية معترفا بها ؛ ولعلك تذكر أن الدويلات الألمانية لم تنصهر فى وحدة سياسية إلا منذ عهد قريب ؛ فكان من الطبيعى أن تتنافس الدويلات فى السيادة اللغوية كما تتنافس فى السيادة السياسية ، ولم يكن يسيراً على دويلة منها أن تفرض لسانها على سائر الأجزاء .

مارتن لوثر :

جاء لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) والحالة كما رأيت ، فلما همّ بترجمة الإنجيل إلى الألمانية ، وجد اللغة السكسونية أوسع اللهجات انتشاراً فى المخاطبات الرسمية بين الدويلات ، فاستخدمها فى الترجمة ، وبذلك أصبحت لغة ألمانيا الوسطى لغة قومية أدبية .

ولعلك لا تجد فى التاريخ كله رجلا اجتمع فى شخصه ما اجتمع فى شخص لوثر من قوة فى توجيه أمته فى السياسة والأدب والدين فى آن معاً ؛ ولسنا ندرى هل استطاع لوثر أن يكون قوة دافعة فى الدين والسياسة بسبب براعته الأدبية ، أم كان فى مقدوره أن يبلغ ما بلغ من الزعامة بغيرها ؛ وكذلك لا ندرى إن كانت اللهجة الألمانية فى مقاطعة سكسونيا قد بسطت سيادتها وأصبحت لغة أدبية قومية بسبب زعامة لوثر الوطنية ، أم تلك نهاية كان لابد منها ولم يكن لوثر إلا معجلا بها ؟ ومهما يكن من أمر فقد شاء القدر أن يظهر فى ألمانيا المفككة فى القرن السادس عشر بطل قومى وزعيم دينى وأديب ممتاز هو « مارتن لوثر » . ثم شاءت الظروف القائمة أن يكتب « لوثر » بلهجة معينة دون سائر اللهجات الألمانية ، فلم تلبث أن أصبحت لغة البلاد الأدبية القومية ؛ وإن هذا ليذكرنا بما صنعه دانتى حين كتب باللهجة « التسكانية » ففرضها بذلك على سائر اللهجات ، وأصبحت بفضله لغة إيطاليا الأدبية ؛ كما يذكرنا كذلك بما تم على يدى « شوسر » فى إنجلترا حين أنشد شعره باللغة الشائعة فى جنوبى إنجلترا بالقرب من لندن ، فسرعان ما طغت على سائر اللهجات فى البلاد واعترف بها الجميع لسانا قومياً .

استحق « لوثر » مكانته فى الأدب لترجمته الإنجيل ، إذ أراد بهذا الصنيع أن يقرّب بين الناس وبين كتابهم المقدس حتى تنزعزع سلطة رجال الدين الذين تفردوا عندئذ بقراءة الإنجيل فى لغته العبرية ، فلم يكن فى وسع الشعب إلا أن يستعين بهم فى فهم الكتاب وأحكامه ، أما وقد نُقل الإنجيل إلى لغة يفهمها الناس ، فقد بات يسيراً على الزارع أن يتغنى بآياته وهو يفلح الأرض ، وأن يترنم بأنغامه الصانع وهو إلى جانب مغزله ؛ ورب معترض يقول : وهل عرف الدهماء فى ذلك العهد القراءة حتى يقتنوا الإنجيل ويطالعوه ؟ والجواب على ذلك أنهم إن لم يقرءوا هم أنفسهم فحسبهم أن يفهموا ما يسمعون ؛ والعجيب

فى أمر لوثر أنه استطاع أن يكتب نثراً سلساً مستساغاً ، برغم ما عرف عن النثر الألمانى حتى فى العهود التالية له من غموض وتعقيد .

ومما نذكره للوثر فى عالم الفن أنه كمعظم معاصريه ، من أميرهم إلى حقيرهم ، قد ألمّ بقواعد الموسيقى واشتهر ببراعته فى العزف على « العود » ؛ وقد أنشد طائفة من الترانيم تميزت بقوة إنشائها ، ولحنها بعد الأنشاء ؛ وأشهر هذه الترانيم ترنيمة عنوانها « إلهنا حصن منيع » .

وهى مستوحاة من المزمار السادس والأربعين من مزامير داود ، ولما كان البروتستانت لا يزالون إلى اليوم يرددونها فى صلواتهم فها نحن ننقلها للقارىء :

« إلهنا حصن منيع ، درع متين ، سيف ماض ، إنه سينقذنا من كافة الآلام التى تطوقنا . إن شيطان الشر العتيق يتربص بنا اليوم الدوائر ، فتحيك قوته العاتية ومكره الشديد دروعه المخيفة . إن العالم لم يشهد له مثيلا .

إن قوتنا لا تجدى ، فسرعان ماتنزل بنا الهزيمة ، ولكنه يحارب من أجلنا ، ذلك البطل الذى اختاره الإله نفسه . أتريد أن تعرف اسمه ؟ إنه اليسوع عيسى ، سيد الجيوش ، الذى ستظل له الغلبة دائما .

إذا امتلأ العالم بالشياطين ، وأرادت أن تبتلعنا ، لم نستشعر أى خوف ، لأننا واثقون من النصر . فسيد هذا العالم (الشيطان) بالرغم من جهامة وجهه لن يمسنا بسوء . لماذا ؟ لأن الأمر قد بت فيه ، فكلمة واحدة تقصمه .

و « الكلمة » بمنأى عن أيدى الشياطين ، ونحن نتحداهم أن يمسوها فـ « هو » الذى معنا بروحه ونعمه . فإذا سلبونا أجسامنا وأموالنا وسعادتنا وأطفالنا ونساءنا لم نكترث لشىء . إنهم لن يجنوا من ذلك شيئا ، وأما نحن فسيبقى لنا الملكوت » .

« شعراء الغناء » Meistersinger

كان لوثر فى عصر النهضة الألمانية علماً بارزاً ، وكان الإصلاح الدينى عنده شغلا شاغلا ؛ لكن لوثر والإصلاح الدينى لم يكونا كل شىء فى عصر النهضة فى ألمانيا ؛ إذ ازدهر الشعر فى موضوعات من الحياة الدنيوية ، وكان القائمون به نقابات العمال والصناع

كما ساهم فى إنشاده بعض السادة والفرسان ؛ وقد سارت تلك الطائفة من « شعراء الغناء » على النهج الذى كان قد رسم أصوله « شعراء الغزل »[١] فى ألمانيا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وكان الشعر عند هؤلاء الشعراء موضوع جد لا يأخذونه مأخذ اللهو والتسلية ؛ ولم يكن الشاعر ليحشر فى زمرة « شعراء الغناء » إلا إذا أقام الدليل على براعته فى ابتكار الألفاظ والأنغام ، ولم يكن نجاح الشاعر فى هذا بأقل شأناً من تنصيب الرجل فارساً أو منح الطالب شهادته الجامعية ؛ وقد احتفظ لنا « فاجنر » فى رواياته الغنائية بما كان لتلك الطائفة من روح وبما أنتجوا من شعر ومن ملاه تمثيلية .

هنس سخس Hans Sachs

وأشهر تلك الطائفة من الشعراء هو « هَنْس سَخْس » (١٤٩٤ — ١٥٧٦) وهو من أهل نورنبرج ، وكان معاصراً للوثر وتابعاً من أتباعه ، كان سَخْس إسكافاً شاعراً ، لكن لا يذهب بنا الظن أن مثل تلك الصناعة فى ذلك العهد كان مما يزرى بصاحبه ، فقد كان الصانع عندئذ صاحب عمل مستقل وعضواً فى نقابة قوية تكسبه فى الناس مكانة واحتراماً

كان سَخْس خصب الإنتاج فى الشعر والنثر على السواء ، فقد أنشد ما يربى على أربعة آلاف أغنية ، وأنشأ ما يزيد على سبعمائة وألف حكاية وقصة استقى بعضها من الأنجيل . لكن سَخْس برغم هذا كله لم يكن شاعراً أو كاتباً من الطراز الأول ، بل أسرف فى نقده ناقد المانى فقال إنه كاد يجعل من كل شىء حوله قصيدة ولكنه مع ذلك لم ينشىء قصيدة واحدة ! فلم يكن سَخْس إلى جانب معاصريه النوابغ أمثال « رابليه » فى فرنسا و «أريوستو» فى ايطاليا سوى أديب متواضع

سباستيان برانت Sebastian Brant

ولا نستطيع أن نستعرض النهضة الأدبية فى ألمانيا دون أن نذكر سباستيان برانت (١٤٥٧ — ١٥٢١) لشهرة كتابه «سفينة الحمق» . وفيه يعرض المؤلف أكثر من مائة صورة

---

(١) راجع الفصل الخاص بالأدب الألمانى الوسيط فى الجزء الأول من قصة الأدب فى العالم .

للحماقة البشرية ، تشيع فيها السخرية ، وكلها ترمى إلى غاية خلقية ، وقد كان لهذا الكتاب أثر بليغ فى الأدب الذى يعرض سخف الأنسان وغفلته ، فلم يمض على إخراجه خمسة عشر عاماً حتى نشر إرزم سنة ١٥٠٩ كتابه « امتداح الجنون » الذى أهداه إلى زميله الأديب الانجليزى المشهور « السير توماس مور » — وسيأتى ذكره فى النهضة الانجليزية — وقد ترجم الكتاب إلى الانجليزية إسكندر باركلى (١٤٧٥ — ١٥٥٢ تقريباً) الأديب الاسكتلندى

آثار من الأدب الشعبى

على أنه إلى جانب هذا نشأت أساطير شعبية ، منها أسطورة « الدكتور فاوست » التى كان أول ظهورها عام ١٥٨٧ ثم ضربت بجذورها بعدئذ فى آداب العالم ، فأخرج « مارلو » الشاعر الانجليزى بعد ذلك بعام واحد روايته «الدكتور فاوست» ، ثم أخذت القصة تلعب بخيال الأدباء حتى أدركها «جيته»[1] الشاعر الألمانى العظيم فرفعها إلى أعلى ذراها ، كذلك أضاف الأدب الشعبى الألمانى إذ ذاك شخصية مزّاح مهرّج لم تلبث أن أصبحت شخصية عالمية فى الأدب ، وهى تِيل أُيلنْشپيجل Thill Eulenspiegel ومعنى أيلنشپيجل الحرفى « مرآة البوم » ، وهى شخصية فلاح ذاعت عنه بين الشعب الألمانى « حكايات » يعبث فيها بالأمراء والفرسان والقسس وأرباب الحرف ، وقد دونت حكاياته لأول مرة بلهجة ألمانيا العليا ، ثم انتشرت فى أوربا كلها حتى لقد تحور الاسم فى اللغة الفرنسية فأصبحت كلمة (Espiègle) وصفا للأطفال الأشقياء ، ومن أهم ما تتميز به حكاياته تنفيذ ما يصدر إليه من أوامر تنفيذاً حرفياً بغير فهم ، فإذا أرسله سيده لشراء مشمش مثلا ذهب أيلنشپيجل واشترى من خادم الجيران قطه « مشمش » وأحضره للسيد . وهكذا

فإذا أردت أن تلتمس النهضة الأدبية فى ألمانيا ، فلا تلتمسها عند أفراد نوابغ ، بل أدر بصرك إلى الحركة الشعبية التى كان أثرها ظاهراً فى طبقات الناس جميعا ، فألوف وألوف من الأدباء الهواة بين صفوف الشعب ومن غمار الصناع أخذوا ينشئون الأغانى

(١) ترجم الدكتور محمد عوض محمد الجزء الأول من قصة فاوست لجيته إلى اللغة العربية .

ويتفنون بها ، وقد يكون تعليل هذه الظاهرة الأدبية فى ألمانيا تغلغل الموسيقى فى نفوس الشعب ، حتى إنك لترى الألمان يفرضون على صغارهم فرضا أن يتعلموا فى طفولتهم أصول الشعر والموسيقى

وأيا ما كانت الحال ، فإن العبقرية الأدبية عند الألمان لم تظهر إلا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أما القرن السابع عشر الذى ازدهر فيه الأدب فى فرنسا وانجلترا ، فكان عهداً مظلما فى ألمانيا ، ولعل حرب الثلاثين سنة — التى امتدت حتى ١٦٤٨ أن تكون قد أصابت ألمانيا بالجدب والعقم ، وأى غرابة فى هذا الزعم ، وهى حرب أطاحت برءوس الشباب وأثقلت نفوس الشيوخ ؟

كما أن من المؤرخين من يرى أن حركة الاصلاح الدينى التى قام بها لوثر قد أخرت ظهور النهضة فى ألمانيا وتفتح النفوس لنتاج ثقافى حر جديد ، وذلك لما هو معلوم من أن حركة لوثر كانت تسعى إلى بعث المسيحية فى حالتها القديمة بما تحمل من صرامة . والبروتستانت لا يزالون حتى اليوم ينفرون من كثير من الفنون ، وتخلو معابدهم من كافة الصور والتماثيل . يقول هذا النفر من المؤرخين إن حركة الاصلاح الدينى قد أخرت ظهور النهضة فى ألمانيا قرنين كاملين ، وجعلت من هذين القرنين امتداداً للعقلية المدرسية (Scolastique) التى سادت فى القرون الوسطى بما عرف عنها من تزمت وضغط على الحرية الفكرية ، وهذا رأى لا نناقشه هنا ، ولكننا نميل إلى التسليم بوجاهته .

فسراج النهضة الذى اشتعل وتوهج فى سائر الدول الأوربية كان ضوؤه خامدا فى ألمانيا فلم تنتج إلا أدبا هزيلا ضعيفا .